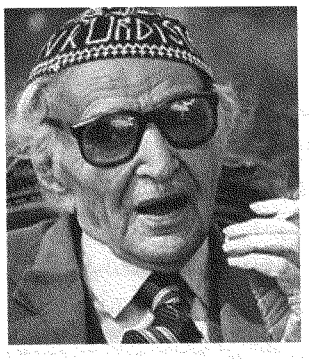

في ذكراه الحادية عشرة

الجواهري الكبير: محطّاتٌ عنه... ومعه

عبد الحسين شعبان*

هل حقّاً غادرنا الجواهري، وإلى الأبد؟ فـ «طائر العاصفة،» على حدّ تعبير الشاعر عبد الوهّاب البيّاتي، الذي ظلّ محمولاً على خطر لأجيال، غيرَ عابئ بالنهايات، مقتحمًا منافحًا ومكافحًا، أرخى جناحيْه ليستسلم بهدوءٍ للموت الذي ظلّ يزوغ عنه ويجابهه ويساومه لسنوات.

حين تكون بحضرته، لا يكاد الشعورُ يفارقك بأنّك في قلب مملكة الشعر. فكلّ شيء يَنْبض بالشعر: قامتُه المديدة، وفصاحتُه، وأصابعُه الطويلة الممدودة، واستحضارُه التاريخَ بقصيدته العمودية والملوّنة بأطياف الحداثة. لقد تمكّن منه سلطانُ الشعر حتى لكأنّك لا تستطيع أن تميّزهُ من القصيدة.

لعلّها ضريبةُ المنفى أن نَخْسر في غضون سنوات قليلة جدّاً خمسة شعراء. فإضافةً إلى الجواهري الكبير، غادرنا الشاعر بلند الحيدري وهو من روّاد الحداثة الأولى؛ وتبعه الشاعرُ الكلاسيكي السيّد مصطفى جمال الدين المعروفُ بغزلياته الجميلة؛ وقرر الرحيلَ أيضًا عبد الوهّاب البيّاتي الذي هو عمودٌ من أعمدة الريادة في الشعر الحديث. والمفارقة أن ينضمّ ثلاثةٌ من هؤلاء (الجواهري وجمال الدين والبيّاتي) إلى جوار بعضهم بعضًا في مقبرة الغرباء في دمشق، في حين غادرتنا الشاعرة نازك الملائكة بعد غربة طويلة، فدُفنتْ في أرض الكنانة. وهذا القدر المحتوم اختطف مع هؤلاء المبدعين كلاً من الروائي غائب طعمة فرمان، والروائي شمران الياسري (أبو كاطع)، والباحثين والكتّاب عبد اللطيف الراوي ومصطفى عبود وهادي العلوي، والشاعر والصحافي شريف الربيعي، والشاعر سركون بولص، وعشرات غيرهم. ولهذا نَشْعر جميعًا، على ما أعتقد، بمكانهم الشاغر في الأماسي الثقافية العراقية والعربية، وفي ليالي المنافي البعيدة، حيث يطول الزمهريرُ، على حدّ تعبير الشاعر مظفّر النوّاب.

ثلاثُ سماتٍ حملها الجواهري معه: التناقض، والتحدّي، والإبداع. وسنقتصر على الأولى والثانية في هذا المقام. ومن ثمّ أعرّج على الجواهري سياسيّاً، وأختم بمحطّاتٍ من علاقتي به.

التناقض

جمع الجواهري التناقضَ المحبَّبَ، فتجاورتْ عنده الأضدادُ بهرمونية وتنسيق باهريْن، بصعوده ونزوله، بجوانبه المشرقة والمضيئة. ففي قوله:

يا نديمي وصُبَّ لي قَدَحًا ... ألمسُ الحُزْنَ فيه والفَرَحا

يَجْمع الحزنَ والفرَح في كأسٍ واحدةٍ، وهو جدلُ الحياة المقترنُ بالموت.

يقول الجواهري: «أنا ابنُ المتناقضات والتعارضات على جميع المستويات، وأرغب أن يقرأني الناس ويَعْرفوني بذلك،لأنني ولدْت في بيئة متناقضة...».

ولم أرَ في الضدائد من نقيض ... إلى ضدٍّ نقيضٍ من ضريب

وهو في هذا يَعْرض بوضوح بعضًا من شخصيته، بتلقائيتها، وبكلّ تركيباتها وتعقيداتها، في حين يحاول الكثيرون تلميعَ شخصياتهم وادّعاءَ ما ليس لديهم. ولعلّ الجواهري خيرُ مَنْ عبّر عن نفسه في شعره حين جمع المتناقضات الإنسانية الباهرة. يقول:

عجيبٌ أمرُكَ الرجرا ... جُ لا جنفًا ولا صَددا

تَضيقُ بعيشةٍ رغدٍ ... وتَهْوى العيشةَ الرغدا

وتَرْفض منّةً رفهًا ... وتُبْغض بُلْغةٍ صردا

وتخشى الزُّهدَ تَعْشَقُهُ ... وتَعْشَقُ كلَّ مَنْ زَهدا

ولا تقوى مصامدةً ... وتَعْبد كلّ مَنْ صمدا!

ويَرِدُ ذلك الترابُطُ العضوي للمتناقضات في قصيدته المهداة إلى القائد جمال عبد الناصر (بعد وفاته) إذ جَمَعَ فيها «المجدَ والأخطاءَ» قائلاً:

أكبرت يومك أن يكون رثاء ... الخالدون عهدتهم أحياء

لا يَعْصم المجدُ الرجالَ وإنما ... كان العظيم المجد والأخطاء

تُحصى عليه العاثراتُ وحسبُه ... ما كان من وثباتِه الإحصاء

---

* - حقوقيٌّ وكاتبٌ من العراق.

التحدّي

في التحدّي يتجلّى صوتُ الجواهري ضاجّاً بمفردات ذات صور لاهبة، شديدةِ الإيحاء، كثيرةِ التموّجات، خصبة الأحاسيس، مشحونةٍ ومتوتّرة، مملوءةٍ بكل معاني الحياة. وتكاد وتعبّر قصيدة مثل «هاشم الوتري» عام ١٩٤٩ عن حقبة كاملة، شكّلت المشهدَ الأكثرَ حضورًا في الصراع والتحدّي، وهي المرحلة التي يُطْلق عليها حسن العلوي «السدسَ العبقريّ»:

أنا حَتْفُهم أَلَجُ البيوتَ عليهمُ أُغري الوليدَ بشَتْمِهِمْ والحاجِبا
مستأجرين يُخربونَ ديارَهم ويكافئون على الخراب رواتبا
متنمّرين يُنصبونَ صدورَهم مثلَ السباع ضراوةً وتكالُبا
حتى إذا جَدّتْ وغَى وتضرّمتْ نارٌ تلفّ أباعدًا وأقاربا
لَزموا جُحورَهم وطار حليمُهم ذُعْرًا وبُدِّلتِ الأسودُ أرانبا!

أما في السبعينيات والثمانينيات فقد شهد قاموسُ الجواهري نوعًا جديدًا من التحدّي والكبرياء والاعتداد بالنفس. وقد برز ذلك على نحوٍ واضح في رائعته «أَزِحْ عن صدركَ الرَّبَدا» التي ألقاها بعد حصوله على جائزة «لوتس» في جمعية الرابطة الأدبية في النجف في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥:

أزح عن صدركَ الرَّبَدا وقُلْ تُعدِ العصور صدَى
أأنتَ تخافُ من أحدٍ؟ أأنت مُصانِعٌ أَحَدا؟
أتخشى الناسَ؟ أشجعُهم يخافُكَ مغضبًا حَرِدا
ولا يعلوك خيرُهم ولستَ بخيرهم أبدا!

أما في قصيدة «المتنبّي» المنشورة في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ فيصوّر الجواهري شموخَ المتنبّي وكأنّه يتحدّث عن نفسه المتحدّية:

تحدّى الموتَ واختَزَل الزمانا فتًى لوّى من الزمنِ العنانا
فتًى خبط الدنا والناسَ طُرّاً وآلى أن يكونَهما فكانا!

وتمثّل قصيدتُه «حسب الثمانين» التي نشرها في صحيفة **الشرق الأوسط** ١٩٨٢/٢/١٩ قمّة الاعتداد والتحدّي:

حسبُ «الثمانين» من فخرٍ ومن جذَلِ غشيانُها بجنانٍ يافعٍ خَضِلِ
يا «ابنَ الثمانين» كم عولجْتَ من غَصصٍ بالمغرياتِ فلم تشرقْ ولم تملِ
كم هزَّ دوْحَكَ من قزمٍ يطاوله فلم يَنَلْه ولم تقصرْ ولم يَطُلِ
وكم سَعَتْ «إمّعاتٌ» أن يكونَ لها ما ثار حولَكَ من لغوٍ ومن جدلِ
يا صاحبي وحتوفُ القومِ طوع يدي وكم أتتهم رياحُ الموتِ من قبلي

وراح الجواهري لا ينتقد الحكّامَ ويتحدّاهم فحسب، وإنما يلوم المحكومين أيضًا، الذين لا يتمرّدون ولا يثورون. ففي قصيدته المنشورة في مجلة **المجلة** في ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥، يقول منتقدًا بحرقةٍ الأوضاعَ العربيةَ المزرية، التي جلبت النكباتِ والهزائمَ القومية:

أفأمةٍ هذي التي هزلتْ وتناثرتْ فكأنّها أممُ
يسطو على صنمٍ بها صنمُ ويغار مِنْ علمٍ بها علمُ!

ثم يصعّد ازدراءه فيقول:

أأبا مهنّد شرّ مَنْ حكموا ما كان لولا ذُلّ مَنْ حُكموا
ماذا على الراعي إذا اغتُصِبَتْ عَنزٌ ولم تتمرّدِ الغَنَمُ؟!
يا أيها «الطاعون» حلّ بنا وبمثل وجهِكَ تكشفُ الغممُ!

الجواهري سياسيّاً

الجواهري، مع كونه عراقيّاً صميميّاً ورائدًا من روّاد الوطنية الأولى، فإنه عربيُّ العقل والهوى والمشاعر.

ومع أنه كان عربيّاً أصيلاً، فإنّ طاقيةَ رأسه كانت مطرّزةً بكلمة «كردستان»، وكانت دواوينُه تملأ مكتباتِ الأكراد أيضًا. وإذا كان قد عانى التمييزَ الطائفيَّ بشأن موضوع الجنسية، فإنّ الطائفية وشرورَها لم تعرفْ طريقًا إلى قلبه.

لقد هجر الجواهري زيَّه التقليديَّ الأول، لكنه ظلّ محافظًا على لغته وبناء قصيدته. ومع أنه اقترب من اليسار، إلاّ أنه تمايز منهم، فحمل عبقَ التاريخ وزهوَ الثقافة العربية ـ الإسلامية، وإنْ مال إلى التجديد وتحرُّرِ المرأة ومساواتها ونشر التعليم.

وإذا كان الجواهري مع ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ روحًا وإبداعًا، فإنه كان مع الملك فيصل الأول ورجاله. ولئن كان مع الزعيم عبد الكريم قاسم في أول أيام الثورة، فمن الطبيعي أن لا يكون معه وهو يستدير بالبلاد بعيدًا عن الحكم الديمقراطي، فاختار المنفى ومكث فيه سبعًا عجافًا متّصلةً (على حدّ تعبيره) منذ العام ١٩٦١.

علاقتي بالجواهري

كان اسمُ الجواهري، منذ طفولتي، يملأ الأجواء، لدرجة أنّه كان يَسْكن مخيّلتي وأنا ذاهب إلى مدرستي «السلام» الابتدائية في محلّة العمارة، بالنجف الأشرف، مارّاً في الذهاب والإياب أحيانًا أمام جامع الجواهري الشهير. وهذا الجامع مضى على إنشائه أكثرُ من مئتيْ عام. وكان راعي الأسرة الجواهريّة وباني مجدها الأوّل، الشيخ محمد حسن، صاحبُ كتاب **جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام**، قد ذاع صيتُه العلمي في ذلك الزمان، وغدا كتابه مرجعًا رئيسيّاً للمنهج الدراسي في جامعة النجف الفقهيّة.

كانت قصائدُ الجواهري ودواوينُه تزيّن مكتبةَ العائلة، إذ كان أعمامي من مريديه والمتغنّين بشعره. وتحوي مكتبةُ الأخوال

الكثيرَ من القصاصات والصحف التي تتابع أخبارَه ونشاطاته الإبداعية، مثلما كانت دواوينُه تتصدَّرها. وكانوا، مع مجموعة من المثقّفين والأدباء، لا ينفكّون يتجادلون بما نَظَمَه الجواهري وما كتبه.

هكذا نشأ الجواهري معنا في المنزل، إذا جاز التعبير، أو بالأحرى، نشأنا ونحن نتطلّع إليه. فجامعُ الجواهري للعلوم الدينية والفقهية كان قريبًا من دارنا في «عكد السلام»؛ وآلُ الجواهري يتورّعون بالقرب من بيوتنا المتراصّة والمتكاتفة والملتفّة حول صحن الإمام عليّ ومرقده الذي تعلوه القبّةُ الذهبيةُ المتوهّجة.

في تلك البيئة النجفيّة، ومن أسرة عربية تهتمّ ـ كباقي الأسر الكبيرة في النجف ـ بالشعر والأدب والمجالس الحسينية، ولدتُ وترعرعتُ، لتغدو تلك الروافدُ الروحيةُ إحدى أهمّ ركائز حياتي المستقبلية.

وكان الشعر بخاصّة، والأدبُ بعامّةٍ، يشكّلان الأساسَ الذي لا غنى عنه في المجالس والمناسبات الأدبية والدينية والاجتماعية، التي هي أقربُ إلى الأندية الثقافية والفكرية. فقول الشعر في النجف ـ وكما تعارَفَ عليه الناس ـ طبيعي، أيْ غيرُ مصطنع أو يهدف إلى الكسب. إنَّه وجدانيّ نابعٌ من الشعور، وليس أمرًا تعليميّاً. وفي هذا الصدد يقول الجواهري إنَّ الظاهرتين الدينية والأدبية كانتا تلتقيان وتصبُّ كلٌّ منهما في مجرى الأخرى، وذلك بحكم فصاحة القرآن الكريم وبلاغته دينيّاً.

وكانت المعارك الأدبية والثقافية في ليالي الجمعة أو أماسي الأربعاء قد حظيتْ بشهرة كبيرة، كما يورد الشيخ جعفر باقر محبوبة في كتابه **ماضي النجف وحاضرها**. فقد كان الشعر متعةَ تلك المجالس الأثيرة، تجري فيه المطارداتُ الشعريّة، وفي المقدّمة منها مسابقاتُ «التقفية» الصعبة، حيث يقرأ المتسامرون هذا البيتَ وذاك، ويتركون للآخرين الردَّ عليهم بأبياتٍ تبدأ بحرف القافية ويواصلون هم أيضًا استنباطَ القافية.

وإذا كان الشعرُ علامةً فارقةً للنجف، فإنَّ جوّ المدينة كان عاطرًا بالعلم والمعرفة والفقه واللغة أيضًا. وقد وَصَفَ الأديبُ اللبناني أمين الريحاني النجفَ عند زيارته لها عام ١٩٢٢ بأنَّها أعظمُ مدينةٍ في العالم لا في زخارفها أو جمال قصورها، بل في رجالها! وكان الجواهري قد كتب قصيدتَه النونية التي أجابه بها ومطلُعها:

أرض العراق سعت لها لبنانُ فتصافح الإنجيلُ والقرآنُ

لمن تزرع الورد؟

. خـــالد شـــوملي .

لمنْ تزرعُ الوردَ؟
والشمسُ غارقةٌ في سباتٍ عميقٍ؟
هوَ الليلُ سيّدُ هذا الزمانِ،
عواءُ ذئابِهِ لا ينتهي،
والمرايا مكسَّرةٌ لا تَرى أو تحسُّ.
على شفتيْ مدينتِنا
يتربّصُ سورٌ،
وخلفَهُ ألوانُ أحلامِنا
جثثٌ
متناثرةٌ في الزوايا!

❖❖

لمنْ تزرعُ الوردَ
والحربُ دائرةٌ في عروقِ الورى،
والعصافيرُ قدْ هَجَرَتْ غابةَ القلبِ
باكيةً
وفَراشُ المحبّةِ غادرَ شُرفةَ روحي؟

❖❖

لمنْ تزرعُ الوردَ
والحلمُ يُشنقُ قبلَ نضوجِهِ،
والحبُّ يَشهقُ
في وطنِ البرتقالِ؟
أبي قلْ!
لمنْ تزرعُ الوردَ في ساحةِ الحربِ؟
دبّابةُ الموتِ تكسرُ أضلاعَهُ
قلْ لمنْ؟
لكِ أنتِ القصائدُ يا طفلتي!

ألمانيا

ولكنَّ الريحاني انحاز إلى ساطع الحصري في الخلاف مع الجواهري، الأمرُ الذي ظلّ الجواهري يتذكّره باستمرار، لا سيَّما وأنَّ الريحاني حاول أن يَعْرض في كتابه الموسوم **قلب العراق** صورةَ ذلك الخلاف بطريقةٍ بدت وكأنَّها ضدّ الجواهري. فانتهز الجواهري قدومَه إلى العراق لتغطية أخبار انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦، فنشر مقالةً انفعاليةً مدوّيةً بعنوان «جاسوس في أوتيل تايكرس پالاس» وكانت بمثابة ردّ فعل لما كتبه الريحاني. ويقول الجواهري: فما كان منه إلاّ أن يطوي أوراقه ويرزم حقائبه ويرحل.

دخل الجواهري ذاكرتي الطفوليةَ الأولى مصحوبًا بالتقدير حدَّ التقديس، والافتتان حدَّ الوَلَه، وبقصائدِ تحدٍّ، زادت جذوةَ الفتوّةِ اشتعالاً. وكان هذا يَكْبر معي بمرور الأيام، خصوصًا التأثّر بقدرته العالية في التعبير عن أحاسيس وإرهاصاتٍ كان هو وحدَه خيرَ من يُحسن التعبيرَ عنها، حتى ليقودنا إلى طريق مليئة بالمفاجآت والأحلام، مفضيةٍ إلى عوالم أخرى موشّاةٍ بالذهب تارةً، وبالألغام تارة أخرى.

لازمتني تلك الصحبةُ على امتداد تلك السنوات. فقد كنتُ، وما زلتُ بعد رحيله، أجدُ في الجواهري معينًا لا ينضب لينبوع الشعر، المندفع بغزارة، والملوّن بكلّ ألوان الحياة. فكنت ألتجئ إليه في الحزن والفرح، في الهمّ والكدر، مثلما في الانشراح والانبساط، في لحظات الضعف، وعند الشعور بالقوّة. كنت أجدُ الجواهري خيرَ مَن يرشدني: فطريق الشعر، وإنْ كان يرميك في أتونه أحيانًا وفي محرقة قصائده، فإنَّه في الوقت نفسه يجعلك تشعر بالدفء، موقدًا في روحك التأمّلَ وربّما الحكمةَ أحيانًا.

الذاكرة الأولى بدأتْ تختزن بقصائد وأبيات لها دلالاتٌ ومعانٍ مرتبطةٌ بتلك الأيّام، وبأسماء وبطولات وصور كانت تؤلّف المشهدَ الأكثرَ حضورًا في الصراع. وينبع بعضُها من إشكاليات الجواهري ذاته، إذ باستطاعته تحويل أيّة مناسبة إلى فرصةٍ لتقريع الحكّام. والحال أنّ هذه القدرة العجيبة على التحدّي كانت الجانب الأكثر تأثيرًا في الشباب التوّاق إلى التغيير والتجديد. وتكاد قصيدةٌ مثل هاشم الوتري، كما ذكرنا، تعبّر عن مرحلة كاملة، حيث يقول في مطلعها:

إيه «عميد الدار» شكوى صاحبٍ طفحتْ لواعجهُ فناجى صاحبا

وقد حدَّثني كريم مروّة أنَّه حضر تلك الاحتفاليّة، بصحبة عزيز أبو التمن وناجي جواد الساعاتي، حين كان طالبًا في الإعداديّة المركزية ببغداد. وعندما ألقى الجواهري رائعتَه تلك نزلتْ كالصاعقة على رؤوس أركان العهد الملكي، إذ كان حاضرًا الوصيُّ عبد الإله ونوري السعيد وآخرون، وكانت أصابعُ الجواهري تشير إليهم متوعّدةً. وبعد الانتهاء من إلقاء القصيدة قام الجواهري بتمزيقها، كما يذكر في حوارات مطوّلة مع كاتب السطور، ثم رماها تحت الطاولة. يقول كريم مروّة: فما كان منّي إلاّ أن لملمتُ المزَق ووضعتُها في جيبي وحملتُها معي إلى لبنان في رحلة العودة مع عائلة حسين مروّة، الذي سبقهم إليها، حيث أمرت السلطاتُ بإسقاط الجنسية العراقية «المكتسبة» عنه لأسباب سياسية، وكان قد حصل عليها خلال فترة إقامته في العراق الممتدّة ما بين العام ١٩٢٤ والعام ١٩٤٩.

ويذكر كريم مروّة أنَّه زار الجواهري في سجنه، بصحبة عزيز أبو التمن والساعاتي بعد حصوله على ترخيص من مدير التحقيقات الجنائية بهجت العطية. وقد أُطلق سراحُ الجواهري بعد ذلك بأيّام بسبب فقدان الأدلّة الثبوتيّة، إذ مزَّق القصيدةَ وضاعت آثارُ «الجريمة».

ولكنَّ القصيدة ظهرتْ إلى الوجود فجأةً في لبنان. فكما يقول كريم مروّة «قمنا أنا وحسين مروّة وولده نزار مروّة بترتيب القصاصات الممزّقة، لتولد القصيدةُ مجدَّدًا وترى النور، حيث أرسلناها لتنشر في صحيفة **التلغراف**».

وما إنْ وصلت القصيدةُ المنشورة إلى العراق، حتى استُدعي الجواهري إلى التحقيق من جديد وأودع السجن. لكنَّ الجواهري ومروّة يؤكّدان أنَّ معاملة السجّانين كانت أكثر رفقًا في ذلك العهد منها في أزمان لاحقة، وبخاصّة في العهود الجمهورية بعد إسقاط النظام الملكي عام ١٩٥٨. ولعلّ مقارنةً بين حجم الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان تؤيّد ذلك.

❖ ❖ ❖

رحلتي مع الجواهري امتدّت من المنزل إلى المدرسة فالمدينة. ومثلما اكتحلتْ عيناي برؤيته في بغداد، فقد اكتحلتْ بصحبته المديدة في براغ ودمشق ولندن.

سلامًا أيها الجواهري الكبير... واشتياقًا لعراق الجواهري!!

بيروت